

الاتجاهات الحديثة في الإصلاح السياسي الإسلامي

أحمد أمبارك

إذا كانت الحركات السلفية تعود في نشأتها إلى ظهور وانتشار البدع والضلالات في الإسلام، والابتعاد عن أصول العقيدة، فقد كان للاستعمار الأوربي، لبعض الدول العربية، أثره العميق في دفع عجلة الإصلاح السياسي، خاصة أن الكثير منهم أتيح له الإطلاع على المؤسسات السياسية الأوربية واستيعاب الحركة الفكرية عندهم، وبذلك تمكنوا من ترجمة خبرة أثارهم الفكرية، فكان طبيعياً أن يقارنوا بين ما درسوه و عاشوه وبين أوضاعهم السياسية والاجتماعية، وكان الأجدر بهم العودة إلى الإسلام في ينابيعه الأولى يستلهمون منه الحلول، والدعوة إلى الإصلاح الشامل في الدين والدنيا والأخذ بأسباب النهوض، لكن كيفية النهوض أخذت مذاهب شتى، وصور التجديد تنوعت وتجددت وظهرت في ذلك اتجاهات ومذاهب لكن سنقتصر في دراستنا هذه على التيار التوفيقي، والذي يتمثل في السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، وتلميذهما رشيد رضا.

ب-الإصلاح السياسي عند جمال الدين الأفغاني:

يرى السيد جمال الدين الأفغاني أن إصلاح الحكومة عن طريق إصلاح الشعب، وينبغي أن تنبع مختلف المجالس الشعبية من نفس الأمة، ويجب أن تعطى الأولوية لإصلاح عقول البشر قبل إصلاح الحكومات، وفي هذا يقول "إن لقوة السياسية لأي أمر لا يكون لها تميز حقيقة إلا إذا نبعت من نفس الأمة وأي مجلس نيابي يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية، فهو مجلس موهوم موقوف عن إدارة من أحدثه، فالعقول أولاً والحكومة ثانياً⁽¹⁾، أي أن إصلاح الحكومات يبدأ بإصلاح عقول البشر".

فالسيد جمال الدين الأفغاني يرمي إلى إصلاح العقول أولاً، وإصلاح الحكومات ثانياً، وربط كل ذلك بالدين، لذا سيكون محور اهتمامنا باعتبار مدرسته في الإصلاح السياسي سيكون لها امتداداتها عند الشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا. لقد وضع السيد جمال الدين الأفغاني العقل في مكانته الحقيقية حين قال: "الحكم للعقل

(1) أحمد أمين زعماء الإصلاح، مرجع سابق، ص: 59.

أحمد أمبارك

والعلم، حتى لو كانت حقائق العلم وأحكام العقل لا ترضي العامة الذين يساندون رجال الدين وتجار الديانات، ذلك أن تعاليم العقل لا يفقهها إلا نخبة من التنويريين، والعلم لا يرضي الإنسانية كل الرضى، وهي تتعطش إلى مثل أعلى⁽²⁾.

إن الملاحظة في نظره تؤثر في الفكر، ثم يعود الفكر ليؤثر في العمل، ثم تستمد علاقة التأثير المتبادل بينهما لتحديث التغيير في كل شيء، كما يقول "فكل شهود يحدث فكرا، وكل فكر يكون له أثر في الداعية يدعو إليها، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر...ولا ينقطع الانفعال بين الأعمال والأفكار"⁽³⁾

أهتم جمال الدين الأفغاني بالإصلاح في المجال العلمي والفلسفي، معتمدا على الدين الإسلامي وعلى العقل كما قلنا، إذا بلغ درجة من السمو والرفعة وحقق به العدل والسعادة، لكن اتصال السيد جمال الدين بالأقطار العربية ومحاولة الإصلاح فيها، بينت أن هناك موانع وعراقيل واختلافات بينية، وظائفية ومنصبية "وأدرك أن في العالم داء يجب تشخيصه وتحري دواءه وان هذا الداء ليس إلا تفرق أهله، وتشتت أرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف على الرغم من أنهم يمرون بأوقات نحس"⁽⁴⁾.

ركز على جانب هام من الإصلاح، هو الإصلاح السياسي، لتوحيد كلمة المسلمين عن طريق الجامعة الإسلامية التي هي مدار الإصلاح السياسي. يتبين أن الطريقة التي استخدمها جمال الدين الأفغاني، هي الثورة السياسية، لأنها في نظره، من أسرع الطرق لتحرير الشعوب، أما وسائل الإصلاح التربوي، فهي بطيئة جدا، ومع ذلك اهتم كثيرا بتجديد الإسلام، وأراد التوفيق بين السنة والشيعة، وعني بالإصلاح الديني، ونبه إلى النهضة السياسية. وفي هذا المجال قد أكد خطأ الكثير من المستشرقين على أن "جمال الدين الأفغاني لم يكن له برنامج بين، ولا فلسفة منظمة، ولكن كانت له طاقة قوية يؤثر بها على الآخرين"⁽¹⁾ ولكن يبقى الدين عند الأفغاني أقوى من عصبية الجنس وهو جامع الأهواء والكلمات المتفرقة:

(2) جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، المرجع السابق، ص:102.

(3) جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص:103.

(4) الأفغاني وعبد، العروة الوثقى، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1970م، بيروت، ص:837.

(1) wilfredcantwellsmith, l. islam dans le monde moderne traduction francaise, deguimbretiere, edition payot, 1962, page:75.

الاتجاهات الحديثة في الإصلاح السياسي الإسلامي

ومن أبرز رجال الإصلاح المعاصرين للأفغاني، السيد عبد الرحمن الكواكبي (1849-1902)، فهو مصلح ثائرو ولد في حلب، وأتقن اللغة العربية والتركية والفارسية، ولم يكن يحسن اللغات الأجنبية الأخرى، فكان يعتمد على الكتب المترجمة، فهو من أسرة مثقفة، وكان أبوه مدرسا في حلب، ثم صار أميناً للفتوى في نفس المدينة، كما تربى يتيم الأم لذلك تراه ينتصر للبائسين والفقراء والمظلومين، فكان يحب العدل ويسعى له ويكره الظلم فيدحضه، فهو رجل جريء مقدام يجهر بالحق في وجه الكبراء والأمراء⁽²⁾. تقلد الكواكبي عدة مناصب حكومية من محرر لجريدة، إلى قاض، إلى رئيس بلدي، في كل مرة كان يكتشف استبداد العثمانيين، خاصة رجال الإدارة والمتعلمين من رجال الدين، لذلك كان شديد الانتقاد لهؤلاء مما دفعه إلى حلب أن يلقى له تهمة خطيرة تمس بأمن الدولة، وهي أنه كان "يسعى تسليم حلب إلى الدولة الأجنبية"⁽³⁾ فسجن وجرده من كل أملاكه.

بعد الإفراج عنه تأكد بأن المرض أكبر من أن يكون في دولة صغيرة كحلب، فقرر أن يقوم بعدة جولات في دول إفريقيا الشرقية وسواحل آسيا الغربية فنزل بالهند، وكان في كل مرة يقف على حقيقة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي كانت تعاني من تدهور رهيب، ونظرا لتوفير القدرة الكافية من حرية التعبير في مصر، قصدها هروبا من استبداد الحكم في مسقط رأسه وكان ذلك سنة 1899. وهناك بمصر تفتحت قرائح الكواكبي وعبر عن هذا السبيل المتدفق من الأفكار الثورية الإصلاحية في الصحف المصرية، ومن أهم أعماله على الإطلاق كتابيه "أم القرى"، و"طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد" الذي جاء أصلا ضد الاستبداد، بين الانعكاسات الخطيرة على الأمة الإسلامية بصفة خاصة والأمم الأخرى بصفة عامة وتكلم فيه على اثر الاستبداد في الدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية والترقي.

أما الشيخ محمد عبده (1849-1905) فهو مصلح سوري المولد، مصري النشأة، وقيل أنه من أصل تركماني، حفظ القرآن في عامين تحصل على شهادة العالمية سنة 1977 من الأزهر الشريف، فركز جل اهتماماته على الإصلاح الديني والتربوي والاجتماعي.

(2) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مرجع سابق، ص: 99.

(3) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مرجع سابق، ص: 249-250.

أحمد أمبارك

ومن أثاره العلمية، "رسالة الواردات سنة 1856"، وحاشية على "الشرح الجلال الدوني للعقائد العصرية" لصاحبها عضد الدين اللحي سنة 1903، وترجمة لرسالة "الرد على الدهرين" للأفغاني، و"رسالته التوحيد"، و"الإسلام والنصرانية" في رد على فرح أنطوان (1847-1922) و"تفسيره للقرآن"، ومقالاته الكثيرة التي جمعها محمد رشيد رضا في ثلاثة أجزاء تحت اسم، الإمام الأستاذ عبده.

وسنعود إلى موضوع الإصلاح السياسي عند محمد عبده لاحقا بعد الحديث عن جذور هذا التفكير في الفكر السياسي للأفغاني ومظاهر التجديد الأخرى التي انفرد بها الشيخ عبده بعد وفاة أستاذه الأفغاني، وفي نفس المسار نسبر أعماق فكر رشيد رضا السياسي، انطلاقا من أسسه الإسلامية. ومن فكر محمد عبده سنكتشف الشيخ رشيد رضا التلميذ الأمين من جهة والمجدد من أخرى.

الإصلاح السياسي عند محمد عبده:

يحتل الشيخ محمد عبده مكانة مرموقة في الفكر المصري الحديث، وهو من أهم رواد الفكر التجديدي في مصر والعالم الإسلامي ككل، كما يطلق عليه "الأستاذ الإمام" تقديرا لما طرحه من اجتهاد في فهم عقيدة الإسلام.

لقد انطلق محمد عبده من كون الإسلام دينا و دنيا، فانه من الطبيعي أن يكون له موقف من السلطة ونظام الحكم و وسائل التعبير المختلفة، كما زواج بين الفكر والعمل السياسي، حيث تنوع إسهامه في الإصلاح السياسي، يقول هاملتون جيب(1895-1971) "كان من الضروري تصفية العنصر الديني في الحركة الإصلاحية من التأثير الانفعالي للبرنامج الثوري والقومي، تلك كانت المهمة التي قام بها أشد تلامذة الأفغاني شهرة هو المصري الشيخ محمد عبده، في الحقبة الأخيرة من نشاطه الحي، كان لنشاطه الفضل في فصل العقائد الدينية عن النزاع السياسي..."⁽¹⁾ ويتطابق هذا الرأي مع موقف شارل آدمز، في كتابه "الإسلام والتجديد في مصر" الذي يرى أن الشيخ محمد عبده قد راهن على الإصلاح التربوي وليس على السياسة.

كما يفتتح (ألبرت حوراني) حديثه عن الشيخ عبده في كتابه " الفكر العربي في عصر النهضة " كيف أن محمد عبده كان تلميذا و معاونا للأفغاني يقتفي أثره عن قرب، لكنه لم يبق طيلة حياته تلميذا للأفغاني، لقد كان مفكرا نظاميا أكثر من معلمه، لقد

(1) محمد ، محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر مؤسسة الرسالة بيروت، 1984 ، ج 1 ، ص:65 انظر كتاب تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده لرشيد رضا ، ج 1 ، ص:905.

الاتجاهات الحديثة في الإصلاح السياسي الإسلامي

رفض تعاليمه فيما بعد، يقول ألبرت حوراني: "ففيما جاء الأفغاني من مكان بعيد يصعب تعيينه من بعيد، ويصعب تعيينه بالتأكيد، وصرف عمره متنقلا كالشهاب من بلد إلى آخر، كان محمد عبده من عائلة متأصلة الجذور في بلده حيث أنجز معظم أعماله"⁽²⁾ لكن هذا التباين بين الأفغاني وعبده لا يمنع من التوافق والتعاون الشديد بينهما.

عاد محمد عبده إلى القاهرة سنة 1888 وحتى وفاته سنة 1905 م وأظهر الشيخ شخصيته المستقلة، وحدد فيها اتجاهاته الفكرية والإصلاحية، وكشف عن طريقته في الإصلاح الفكري والديني، وأصبحت علاقاته تتميز بالانفتاح والتلاقي، وكون علاقة ودية مع الانجليز وخاصة مع (اللورد كرومر) الذي حكم مصر بين (1884-1907م)، كما هيأت له فرصة الارتقاء لمناصب المسؤولية، فقد عين قاضيا بالمحاكم الشرعية ثم مستشارا في محكمة الاستئناف، وفي سنة 1895، عين مفتيا للديار المصرية، وهو من أعلى المراتب في الدول⁽¹⁾ لقد عكس هذا المنصب الروح الإصلاحية لعبده ونزعته التجديدية.

وفي تقييم ألبرت حوراني في كتابه "الفكر العربي في عصر النهضة" الذي بين أن الشيخ عبده أصبح في آخر أيامه بفضل كتاباته من أوسع الناس شهرة وأحيمهم إلى القلوب في مصر"⁽²⁾.

لقد دخل عبده معترك السياسة من الثقافة، ثم هجرها واعتزلها، في حين استمر الأفغاني في نهجه الإصلاحي ومشروعه السياسي، لقد عبر عبده عن موقفه من السياسة والتحول عنها صراحة، ونقده لها، حين يقول: "إن شئنا أن نقول، إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فانا معك من الشاهدين، أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة، ومن كل طرف يلفظ من كلمة سياسة ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس"⁽³⁾.

(2) محمد عبده، تاريخ الأستاذ الإمام ج 1، ص: 11، انظر زكي الميلاد من التراث على الاجتهاد، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2004، ص: 76.

(1) زكي الميلاد، من التراث إلى الاجتهاد، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2004، ص: 69.

(2) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، المرجع نفسه، ص: 144.

(3) محمد عبده، الإسلام بين العلم والمدنية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ص: 144.

أحمد أمبارك

صحيح أن محمد عبده انخرط في مشروع "الجامعة الإسلامية" و من أجلها حددت "العروة الوثقى" التي قامت بنشر الفكرة ودعمها في العالم الإسلامي، لكن هذه الفكرة كانت مركز خلاف بين عبده وأفغاني، وهذا الموقف كسب ارتياح الانجليز، لأن فكرة الجامعة الإسلامية تثير الفتنة مع الأوروبيين كما يعتقد الكثير من دعاة التغريب، وهو ما عبر عنه كرومر، إذ كتب يقول: "لقد تبينت من طول اتصالي بهم، أن هدفهم إصلاح النظم الإسلامية دون المساس بالدعائم التي تقوم عليها العقيدة، إنهم وطنيون حقيقيون، ... على أنهم لا يمتنون بصلة للجامعة الإسلامية".

إن مراجعة الشيخ عبده لرؤيته عن الجامعة الإسلامية، انعكست على رؤيته السياسية والإصلاحية، حيث تحول الاهتمام إلى إصلاح المجتمع المصري بدل الاهتمام بالدولة العثمانية. لذا نراه يقول "إن المحافظة على الدولة العلية، ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة لبقاء حوزته، وليس للدين سلطان في سواها، وإن على هذه العقيدة والحمد لله، عليها نحيا وعليها نموت"⁽¹⁾.

ويمكن إطلاق السلفية على فكر محمد عبده، فالكثير من الكتاب و الباحثين يعتمدون على هذا النص الذي يقول فيه: "ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين، الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، و الرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى لترد من شططه، و تقلل من خلطه و ضبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإسلامي"⁽²⁾ لكنني اعتقد أن الشيخ محمد عبده، قصد بهذا النص، تعقل المعرفة و النظر والاجتهاد و التعامل العقلاني مع الدين، ويمكن التماس هذا التصور العقلاني عند الشيخ رشيد رضا، كما سنرى لاحقاً، و مصطفى عبد الرازق، و الشيخ أبو زهرة، و غيرهم، هذه النخبة من كبار شخصيات العلماء الفاعلة في مصر، ساهمت في الإصلاح و التجديد في الفكر الإسلامي، وهي التي أضافت لمدرسة محمد عبده الثقة والاستمرارية.

(1) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م، ج 1، ص: 65.

(2) زكي الميلاد، من التراث إلى الاجتهاد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2004، ص: 76.

الاتجاهات الحديثة في الإصلاح السياسي الإسلامي

لكن رغم ما يبدو من نفور محمد عبده من السياسة، إلا أنه طرح أسس النظام السياسي المنشود وهو الحرية والشورى والقانون.

كان محمد عبده أقرب إلى المفكر السياسي منه إلى رجل السياسة، فهو يميل إلى التربية والإصلاح، وجاءت السياسة في حياته عرضاً أو ضرورة مكملية لفكرته النهضوية. ومهما قيل في دعوة محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، فقد تأثر بهما الكثير من العرب والمسلمين، فكان من أشهر تلامذتهما، محمد رشيد رضا الذي سار على نهجهما واثري الفكر الإصلاحي المعاصر أشد الأثر.⁽³⁾

الإصلاح السياسي الشرعي عند رشيد رضا

يعتبر الشيخ رشيد رضا، من أبرز الشخصيات الإصلاحية التي ظهرت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لكن جهوده في الإصلاح السياسي لم تنل العناية الكافية من الباحثين الذين أرخوا لهذه المرحلة، واعتبروا الشيخ رشيد رضا مجرد ناشر لأفكار الأفغاني والشيخ محمد عبده. لكن تطور الأحداث في عصره، حتمت على الشيخ رشيد رضا مساهمة الأحداث، وأن يطبع على منهج أستاذه طابعه الشخصي، ويظهر تمايزه في الإصلاح السياسي خاصة بمشاركته الفعلية في بعض الأحداث السياسية التي عرفت الدولة العثمانية.

لا شك أن هذا الحضور اللافت للشيخ رشيد رضا، في وضع أسس مشروع سياسي حديث، يكشف مساهمات الشيخ في الإصلاح والتجديد السياسي، ويمكننا فعلاً من معرفة التمايز بينه وبين شيخه الأفغاني، وخاصة عندما يتحدث عن الإصلاح السياسي الشرعي.

لقد أشار السيد رشيد رضا إلى توجهه المباشر في الإصلاح السياسي، عند حديثه عن تأثير مجلة العروة الوثقى في هذا التوجه قائلاً: "وأكبر أثرها - أي العروة الوثقى - أنها هي التي وجهت نفسي في الإصلاح الإسلامي العام"⁽¹⁾، وفي هذا الإطار ينبه رشيد رضا إلى ضرورة العمل على تجديد السياسة الشرعية، في وقت ضاعت فيه الخلافة، وتفاقم الوضع السياسي، فتمزقت وحدة العرب، وتشتت كلمتهم، حيث أصبح الحكم دكتاتورياً، ظالماً، وفي ظل هذه الظروف أراد أن يكون مصلحاً سياسياً.

(3) علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1987، ص: 87.

(1) مجلة المنار، مجلد 12، جزء 12، ص: 1910 مقال بعنوان "العرب والترك"

أحمد أمبارك

فما هي الأسباب التي ساعدته على خوض غمار الإصلاح السياسي رغم معارضة الشيخ محمد عبده له؟

ما طبيعة الإصلاح السياسي الشرعي الذي يتحدث عنه الشيخ رضا؟
هل الحديث عن السياسة الشرعية هو حديث عن السياسة عامة؟

إن التمكن من الإجابة على هذه الأسئلة، هو الطريق الوحيد الذي تكشف به عن طبيعة الإصلاح السياسي الشرعي عند رشيد رضا، وبذلك تكشف في الوقت نفسه الأسباب التي أهلت الشيخ لخوض غمار الإصلاح السياسي، والتي يمكن إجمالها في الثقافة العلمية الواسعة والإلمام بالعلوم الشرعية التي ميزته عن أساتذته، و منحته الهيبة والتقدير والشرف⁽²⁾، كما تميز بالأخلاق الفاضلة، وفي هذا السياق يقول الشيخ رشيد رضا: "دخلت سن التمييز، أرى في دارنا وجهاء النصارى من طرابلس و لبنان، بل أرى فيها القسوس و الرهبان، و لا سيما في أيام الأعياد، و أرى الوالد يجاملهم كما يجامل من يزوره من الحكام و وجهاء المسلمين، و يذكر ما يعرف من محاسنهم في غيبتهم بكل إنصاف، و قد كان هذا من أسباب دعوتي إلى التساهل و الوفاق و تعاون جميع أهالي البلاد"⁽¹⁾.

لعب السيد جمال الدين الأفغاني (1838م-1826م) الدور الحاسم في بث روح العمل السياسي الثوري، و مناهضة الاحتلال الأجنبي لبلاد الإسلام، و هو ما شكل مصدر الهام لتفكير رشيد رضا السياسي، بل لم يكتف بالحديث عن السياسة، بل عمل بها. و في هذا يقول الشيخ محمد عبده: "وكان قادرا على النفع العظيم بالإفادة و التعليم، و لكنه وجه كل عنايته إلى السياسة فضاع استعداداه هذا"⁽²⁾. كما تأثر الشيخ رشيد رضا بالشيخ محمد عبده، رغم ادعاء الكثير من المؤرخين بأن محمد عبده (1845م-1905م) اهتم بالتربية و التعليم فحسب، بل على العكس كان التوجه إلى الإصلاح السياسي كما أراده الأفغاني، لكن التجربة المريعة التي عاشها، جعلته ينبذ السياسة و السياسيين، و ما اهتمامه بالتربية و التعليم إلا تأكيد على ضرورة الاهتمام بقضايا الواقع، هذه مجمل الأسباب التي اعتبرت مؤهلات ساعدت الشيخ رشيد على الدخول إلى ميدان الإصلاح السياسي مبدعا و مجددا، مفسرا لقضايا الواقع و معاشا

(2) شكيب أرسلان، السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة، دمشق، مرجع سابق، ص: 24.

(1) إبراهيم العدوي، رشيد رضا الإمام المجاهد، مرجع سابق ص: 22.

(2) محمد احمد درنيقة: السيد محمد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية و الدينية، مؤسسة بيروت، 1986- ص: 26.

الاتجاهات الحديثة في الإصلاح السياسي الإسلامي

لتغييراته.و من البديهي أن هذه الظروف هي التي فتحت المجال أمامه، خاصة أن البلاد تفتقر للرجال كرشيد رضا الذين ينبرون طريقها ويوجهونها نحو السداد والفلاح.

يمكن اعتبار "مجلة المنار" مجلة فكرية سياسية، تتحدث عن السياسة الشرعية النظرية والعملية، عن وعي وتبصر، تعكس القضايا الحية للأمة وتعبر بصدق عن أحوالهم، كما تعبر عن توجه رشيد رضا السياسي وفكره في الإصلاح عامة، خاصة أنها امتدت بامتداد عمر صاحبها⁽³⁾، وعكست بحق حال العرب والمسلمين، وكانت بذلك لسان حال الإصلاحيين المعتدلين كما يذكر وجيه كوثراني في كتابه "مختارات سياسية من مجلة المنار" ولم يكن رشيد رضا سوى واحد من الإصلاحيين، المخلصين الذين يرغبون في إصلاح حال الأمة بالطرق الشرعية الهادفة وهو المسعى الذي ناضل من أجله الأفغاني ومحمد عبده.

اهتم الشيخ محمد عبده بالتربية والتعليم ومهادنة الاستعمار، وهو تحول عميق عن المسار السياسي الذي رسمه جمال الدين الأفغاني، أي الانحراف عن النهج السياسي الإصلاحي الثوري، أما بالنسبة لرشيد رضا فإن عدم الاهتمام بالسياسة كان مؤقتاً، قصد تحقيق التفاعل مع كل الحركات الإصلاحية الأخرى وغلبة آرائهم دون الاصطدام مع أي منها، ويظهر هذا جلياً في الموازنات التي كان يضعها بين المصلحين، كالموازنة بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده⁽¹⁾.

إن عزوف الشيخ محمد عبده على الدعوة الثورية السياسية في آخر أيامه، كان نتيجة لفشل حركة الأفغاني الثورية، ولأن الثورة تحتاج لتربية وتعليم توجهها وتدعمها، ولنفس السبب عزف الشيخ محمد عبده عن السياسة في بداية تتلمذه على محمد عبده، فهل لهذا العزوف عن السياسة ما يبررها؟ وهل هذا دليل على تأثره بتوجهات شيخه محمد عبده؟ هل هذا العزوف معناه التأييد المطلق لنظام الدولة العثمانية؟

وفي هذا يقول الشيخ رشيد رضا: "لا يمكن القيام به إلا بإتقان السياسة فيه، واجتناب مقاومة السلطة له، وجعل مداره على تربية النفوس بالدين، وترقية شأن البلاد الاجتماعي والاقتصادي وترك السياسة لأهلها"⁽²⁾.

(3) محمد خروبات، الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة في التدافع الحضاري، مطبعة إيباج، 1998، ص: 97-96.

(1) وجيه كوثراني، مختارات سياسية من مجلة المنار، مرجع سابق، ص: 30.

(2) مجلة المنار، مجلد 9، ص: 286.

أحمد أمبارك

يظهر من تحليل هذا القول أن للشيخ رشيد رضا رؤيته في الإصلاح السياسي، وما نبذه للسياسة إلا هروب من الصدام ووفاء لشيخه عبده⁽³⁾، وهو موقف استخلصه الشيخ من تحليل عميق للحركات الإصلاحية في عصره، انطلاقاً من تعمقه في فقه السياسة الشرعية، وهو موقف مدرك لنتائج الخوض في السياسة في ذلك العصر، لأن جل الحركات الإصلاحية تخدم بقصد أو بدونه مصالح الاستعمار الأوروبي في البلاد الإسلامية.

إن الإصلاح الحقيقي هو الذي يبدأ بتعليم الأمة و تهذيبها، و إذا تهذبت الأمة و تعلمت جميع شرائح المجتمع بما فيه الحكام، و هي دعوة إلى البر و الإحسان أولاً⁽¹⁾، يقول رشيد رضا موضحاً أثر التربية و التعليم في بناء الدولة العادلة: "لا بقاء مع ظلم و فساد، و لا عدل مع استبداد، و لا هلاك مع الإصلاح، و لا إصلاح للدولة إلا بصلاح الأمة، و لا صلاح لأمة إلا إذا كان فيها بقية من أولى الرأي و العزم، يأمرون بالصلاح و ينهون عن الفساد في الأرض"⁽²⁾.

إن اهتمام رشيد رضا بالتربية و التعليم، هو إدراك لحقيقة الوضع الذي كانت تعيشه البلاد الإسلامية في عصره لكن لا مانع أن نبداً في إصلاح الأمة بالسياسة لكن بمشاركة الجميع، بحيث تتفاعل القمة مع القاعدة و في هذا يقول رشيد رضا مبيناً العلاقة التفاعلية بين الحاكم و المحكوم: "فالحكومة تملك القدرة على إلزام الأمة بالإصلاحات، و صلاح الأمة يؤدي إلى صلاح الحكومة لأن الصالح لا يختار إلا مثله"⁽³⁾، فالدعوة إلى الإصلاح السياسي إذن هي دعوة إلى الالتزام بالشرعية في ظل الاعتدال و الوسطية، و هي نفس الدعوة التي ناضل من أجلها الشيخ جمال الدين الأفغاني و الشيخ محمد عبده، هذه الشروط التي تدعو في مجملها إلى المرونة و الوعي و التخطيط هي التي تسمح لنا بتصنيف الشيخ رشيد رضا كمؤسس للتيار الإصلاحي السياسي الشرعي المعتدل.

إن هذه المواقف السياسية الشرعية، تعكس بوضوح اعتبار الفقه السياسي الشرعي عمدة السياسة الشرعية، و هو موقف ابن القيم الجوزية الذي نلخصه في قوله: "إقامة

(3) و جيه كوثراني، مختارات سياسية من مجلة المنار، مرجع سابق، ص: 26.

(1) مجلة المنار، مجلد 13، ص: 348.

(2) مجلة المنار، مجلد 13، ص: 349.

(3) محمد أحمد درنيقة، السيد رشيد رضا، إصلاحاته الاجتماعية و الدينية، مؤسسة بيروت 1986، ص: 48.

و مجلة المنار مجلد 9، جزء 4، ص: 286.

الاتجاهات الحديثة في الإصلاح السياسي الإسلامي

الحق والعدل، وقيام الناس بالقسط فأى طريق استخرج به الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، هذا المفهوم الذي يشير إليه ابن القيم هو الذي يأخذ به رشيد رضا لكن بتكييفه مع مشكلات العصر، والنصوص في المنار كثيرة⁽⁴⁾.

لقد انطلقت دعوة رشيد رضا من التراث الإسلامي وقواعد علم الأصول، والتضلع في فقه السياسة الشرعية، كما تميزت أعماله بالاجتهاد الإيجابي الفعال الذي يعكس الخبرة في ممارسة السياسة، والمرونة في التعامل مع بعض القضايا السياسية من خلال النصوص المتناثرة في مجلة المنار.

إنها نظرة ملتزمة، معتدلة، تتماشى مع الأوضاع السياسية، وتخدم مشروع الشيخ الإصلاحى، ويعبر بكل تواضع عن نهجه السياسى الإصلاحى قائلا: "حقا إنني على ضعفى وعجزى حريص على الإصلاح الإسلامى على إطلاقه وعمومه، ولا أحض به أهل مذهب دون غيره، وإنني لست سنيا بمعنى التعصب، بل أنا سني بمعنى أنني مستمسك بما صح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، لا أؤثر عليه تقليد أحد"⁽¹⁾. يتبين مما سبق أن نظرة الشيخ للسياسة شاملة عامة، لا تميز بين الراعى والرعية، تتفاعل مع الأزمات بدقة وموضوعية، تقترح الحلول، إذن فهي نظرة سياسية عملية ومشاركة فعلية، وهي دعوة تحررية، تنبذ الاستعمار وتحارب الدكتاتورية، وهي نظرة معتدلة، مرنة، كانت سببا في انتشار الصحوة الإسلامية كما نراها اليوم في مختلف أرجاء العالم الإسلامى، إن الوقوف على القيمة السياسية لنصوص المنار تقتضي قراءتها بتبصرو وعي ومنها نقف على أهم الأفكار التى يمكن لأي مصلح وفي أي عصر الأخذ بها والتي يمكن تلخيصها في ما يلي:

- الدعوة إلى العدل والتسامح ونبد الظلم والاستبداد؛

- تفعيل دور الاجتهاد؛

- محاربة الشرك والاستلها من العقيدة الصحيحة؛

- تنوير العقل بالفكر العلمى والتقدمى وتحريره من الأوهام؛

- بث الوعي السياسى الشرعى فى الأمة؛

إن الالتزام بهذه القواعد هو فى الوقت نفسه تقييد للحكومة الإسلامية بأحكام الشرع، ونبذ للاستبداد باسم السلطة، فليس هناك سلطة دينية روحية على الأمة فالكل

(4) محمد رشيد رضا، الوحدة الإسلامية والوحدة الدينية، مجموعة مقالات صدرت فى المنار المجلد 6، 4، 3.

(1) مجلة المنار، مجلد 23، ص: 66.

أحمد أمبارك

يخضع لقاعدة شرعية عامة هي درء المفساد و حفظ المصالح على الضرورات الخمس التي أقرها أهل الأصول⁽²⁾، كما لا تنطبق هذه القواعد على السياسة الداخلية للبلاد الإسلامية، وإنما هي نظرة تمتد إلى السياسة العالمية أو السياسة الخارجية.

إن الاهتمام بالسياسة العالمية جعلت مواقف رشيد رضا في هذا المجال متغيرة، فلم يصدر مواقف سياسية ثابتة من السياسة الاستعمارية، ولا شك أن هذا التحول يتناسب مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي كانت في ضلها البلاد الإسلامية ولعل هاجس رشيد رضا في كل هذا هو تكوين دولة إسلامية تجمع الشتات و تحافظ على وحدة الأمة و توازنها، وتدافع على تحررها الفكري والسياسي⁽¹⁾.

إن الإصلاح الذي يريده رضا هو الإصلاح السياسي الذي يتم بالإسلام وفي الإسلام، وقد يعتقد البعض أن أحسن إصلاح هو الإصلاح الذي يكون على حساب الشريعة الإسلامية وذلك حين يجمعون بينها وبين ما خالفها من القوانين الوضعية والأحكام العلمانية، فالشريعة في نظره تحوي أصولاً جامعة، صالحة لأي إنسان كان في أي زمان ومكان، جاءت لتعتق الإنسان من العبودية والظلم، وتحرره من الخرافات والأوهام والشرك، وبما أنها آخر الشرائع السماوية على الإطلاق فإنه لا يقبل من أي كان أن يبلغ شيئاً باسم الوحي، فيشرع تحريماً وتحليلاً باسم الدين، والحكومة التي تنشأ في المجتمع الإسلامي والتي تسهر على مصالح المسلمين إنما هي حكومة مقيدة بالأحكام الشرعية التي تضبط العدل والشورى، وليس لأي كان أن يستبد بالتفسير والتحليل باسم السلطة الدينية الروحية، فليست في الإسلام سلطة دينية روحية، إنما تستنبط الأحكام بالعلم والفهم وفي استقلالية تامة، وهي تتأتى لكل من أنس من نفسه قدرة على الاستنباط وتحلى بالشروط التي قررها أهل هذا العلم لهذا الغرض.

هذه بعض ملامح الفكر السياسي الشرعي عند التيار التوفيقي التي تحدد مكانة هؤلاء جميعاً في هذا المجال و تعكس عمق الفهم للفكر السياسي الحديث و هي نظرة اجتهادية علمية، ورؤية ايجابية، وفهم شمولي و معالجة مرنة.

(2) مجلة المنار، مجلد 11، ص: 49.

(1) محمد عبده، الأعمال الكاملة لمحمد عبده، تحقيق وتقديم محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ص: 37.